ما يجعله العبد قطع شهوات النفس أعلى ما يكون عند الهوى إذ ليس لشهوة نهاية
فإن تبتغي لها ليس لها حد أول أي تسمع فإن لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية فإن شغل
فلا يستلذ بحب من لم يذق الطاعة ووجد حلاوة العبادة ولا أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة
وهذا طريق الصالحين من المريدين وقد قيل في قوله تعالى استعينوا بالله واصبروا
أي استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة في المعصية وقال علي عليه
السلام الجهاد الذي جاهد إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتفلة إلى جنب
البحر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد في سبيل الله كتفلة في جنب
بحر والجهاد في سبيل الله إلى مجاهدة النفس عن هواها في اجتناب النهي كتفلة
إلى جنب بحر لجي وهذا على معنى الخبر الوارد رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر
مجاهدة النفس وكان سهل رحمه الله يقول الصبر تصديق الصدق وأفضل منازل
الطاعة عن معصية ثم الصبر على الطاعة وقد روينا في الأخبار الإسرائيليات أن رجلا
تزوج امرأة من بلدة وأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بمجاهدتها
واستعصم فقال فنبأه الله تعالى وكان نبيا في بني إسرائيل وفي بعض قصص
موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بأي شيء أطلعك الله على
علم الغيب قال بتركي المعاصي لأجل الله تعالى وفائدة من الله تعالى يجعله غاية
العطاء لا تقدر على العمل لكن إنما تعمل له عبيدا شيئا لأجله أعطاه أجرا بغير حساب
ثم إن لا ينجز التائب علامة من ذنب فيتنغص عليه توبته فإن العادة جند من جنود
الله تعالى لولاها لكان الناس كلهم تائبين ولولا الأجل لكان التائبون مستقيمين
ثم إن يعمل في قطع معتاده إن كان ثم ليصبر على مجاهدة نفسه في هوى
أن يحمله فهو كالحصان من أفضل أعمال المريدين وأزكاها ومعها يليق النفس إلى
المطمئنة وشرها ونفوسها وبها تخرج من وصف الأمارة بالسوء إلى وصف
المطمئنة إلى أخلاق الإيمان وهذا أصل لطيف في الخبر المروي أفضل الأعمال ما
أكرهت عليه النفوس لأن النفس ذكرت خلاف الهوى والهوى هو ضد الحق والله تعالى
يحب الحق وقد أحيل ذا النفس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق لأنه يحبه الحق من
أفضل الأعمال لما قال تعالى والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه الآية فاستثنى
من أهل الخسر الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهذا أول اليقين حديث عن بعض
أهل الاعتبار أنه كان يمشي في الوحل وكان يمشي ويشمر ثيابه عن ساقيه ويمشي في
جوانب الطريق إلى أن زلقت رجله في الوحل فأدخل رجليه في وسط الوحل وجعل يمشي
في المحجة فاستبكى ويقبل لا يدري يبكيه وقال هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب
ويجانبها حتى يقع في ذنب فيما ذنب ويصبر عندها يخوض الذنوب خوضا وعلى العبد
أن يتوب من الغفلة التي هي كل نية فإن أعظم هذا لم ينقطع أبدا توبته ومن جعل

الله

الله تعالى أهل الغفلة في الدنيا هم أهل الخسران في العقبى فقال عز وجل أولئك هم
الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ولكل غفلة دون غفلة وخسران دون
خسران فلا تستحقرون الغفلة فإنها أول المعاصي وهي عند الموقنين أصل
الكبائر وقد جعل علي عليه السلام الغفلة أحد مقامات الكفر وقرنها بالعمى
والشك وأحال صاحبها عن الحشر ووصفه بالحسرة وقال في الحديث الذي يروى
من طريق أهل البيت وقام عمار بن ياسر فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر
على ما بني فقال على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا
احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن
الرشد وغرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب
وقال بعض العلماء من صرف في زمان شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات
لا يبتلى بها وقال آخر من تاب من ذنب استغفر سبعين سنة لم يرجع إليه
أبدا وقال بعض العلماء كفارة الذنب المعتاد أن تقدر عليه عرضا فتجتنبه
ثم لا يقع فيه فيكون كل ترك كفارة لفعل وهذا حال الأقوياء من التوابين وليس
هو طريق الضعفاء من المريدين بإحلال الضعف إليهم والبعد من حلاوة نفسه
بمعصيته في عرضها لم يطلق نفسه عند وجودها فليعمل المريد في قطع وساوس
النفس بالخطايا والأوقع فيها لأن الخواطر تقوى فتكون وسوسة فإذا كثرت
الوسوسة وشرها نظر فالفكر والتزيين والتسويل فإن كان شيء على التائب يمكنه
خاطر السوء من قلبه فلا صغا إليه فإنه يرى في هلكته وكل سبب يؤول إلى ذنب
ويؤدي إليه وهو ذنب وإن كان مباحا وقطعه طاعة وهذا من طريق الأعمال وكان
يقال من أتى عليه أربعون وهو العمر وكان مقيما على ذنب لم يكد يتوب منه إلا القليل
من الملتزم بحبي وقد روينا في الخبر أن المؤمن مفتن توابا وأن المؤمن مذنب فراغتاد
العينه بعد الجنة ... الحمد ... كل شيء ... خطا وخير الخطائين
المستغفرون ويقال أحق المؤمن وأصبى راجع بخير من مات على ربعة أصبي
وأصبى بالذنوب وأرجع بالتوبة ولا استغفار وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم
قد يفعلوا الذنوب ومن جاء السيئات الحسنة في قوله عز وجل ويدرؤون بالحسنة
السيئة وقد جعل هذا من نعوت العاملين الذين صبروا فقال عز وجل أولئك يؤتون
أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة فجعل لهم صبرا عن الذنب وعلى التوبة
فإن لهم أجرين وقد اشترط الله تعالى على التائبين من المؤمنين شروطا وشرط
على التائبين المنافقين أربعة شروط لأنهم أعظم ذنبا في قوله إلا الذين تابوا وأصلحوا
بالإخلاص فضعف عليهم الشرط لشرك الشرك في الحق واعتبرهم
بوصفه فجعلهم عند ... وقال الله سبحانه إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فقوله تابوا